212580 ـ كلمة (شيخ) وتطور دلالتها في اللسان العربي

السؤال

سؤالي متعلق ببعض المصطلحات الإسلامية ، وأريد أن أفهم ما إذا كانت بعض الكلمات التي استخدمت في القرآن قد استخدمت خارجه بطريقة مغايرة ، وفي سياق مختلف ، فمثلاً كلمة : " شيخ " تعني لغوياً الرجل الكبير في السن ، وقد استخدمت في القرآن والسنة بهذا المعنى ، وبما أنه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن هناك حاجة إلى تصنيفات ومسميات لم يُستخدم – حسب فهمي ـ هذا المصطلح بطريقة مغايرة إلا فيما بعد ، استخدمه العلماء في سياق علمي محدد مخالف لما هو عليه في السياق اللغوي ، فمثلاً نجد أن هذه الكلمة عند جماهير العلماء تشير إلى شخص بلغ من العلم الشرعي مبلغاً محدداً ، ولم يقصد بها الشخص الكبير في السن ، أليس كذلك ؟ ، ثم ما السياقات الأخرى التي يمكن أن تستخدم هذه الكلمات فيها ؟ كذلك عندما يقول العلماء : " رواه الشيخان " ويقصدون بذلك الإمامين البخاري ومسلم ، فهل يقصدون هنا أنهما كانا كبيرين في السن ، أم أنهما بلغا من العلم مبلغا ؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا :

المصطلحات القرآنية ذات أصول لغوية واضحة ، ومعلومة لدى العرب في استعمالهم وخطابهم ، وغاية ما هنالك أن المصطلح القرآني قد يخصص في بعض الصور ، أو قد يشكل عرفا جديدا لدلالة تلك الكلمة ، بحسب التعريف الشرعي الجديد لها ، وإن كان هذا التعريف مشتملا على الأصل اللغوي المعلوم نفسه .

فمثلا كلمة (الصلاة) تعني في اللغة " الدعاء "، وهي تطلق في القرآن الكريم على الدعاء وعلى العبادة المعلومة ذات الركوع والسجود والأذكار وبقية الأركان ، وهكذا تشكَّل عهد جديد شرعي لهذه الكلمة ، ومع ذلك لم تفقد دلالتها على أصل الدعاء الذي لم تخل منه الصلاة المعروفة .

ثانيا :

وأما كلمة (الشيخ) فليس للقرآن الكريم عرف شرعي خاص بها ، بل جاءت فيه بالمعنى اللغوي المعروف فيها ، والذي ذكره ابن السكيت رحمه الله (ت244هـ) بقوله: " إذا ظهر به الشيب واستبانت فيه السن فهو شيخ " انتهى من " الكنز اللغوي " (161) ، ينظر : " لسان العرب " (3/31-33) ، " تاج العروس " (7/286-289) .

وقد وردت كلمة شيخ في القرآن الكريم في أربعة مواضع بهذا المعنى ، وهي :

قوله تعالى على لسان زوجة إبراهيم عليه السلام : (قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) هود/72 .

وقوله عز وجل على لسان إخوة يوسف : (قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) يوسف/78.

وقوله تعالى على لسان الجاريتين اللتين سقى لهما موسى عليه السلام : (قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) القصص/23.

وأخيرا قول الله سبحانه : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا) غافر/67 .

جاءت في هذه المواضع جميعها بالمعنى اللغوي الدال على كبر السن .

ثالثا :

ومع ذلك يجوز إطلاق كلمة (شيخ) لغةً وعُرفا على مَن يكثر علمه ، ويشتهر بالمعرفة بين الناس ؛ لأن هذا المعنى له علاقة بالمعنى السابق ؛ إذ المشيخة ـ التي هي كبر السن وتقدمه ـ يفترض أن تكون سببا في زيادة العلم ودقة المعرفة ، ولهذا أطلقوا على من حاز المعرفة وصف (الشيخ)، كما يقول الراغب الأصفهاني رحمه الله : " يقال لمن طعن في السن : (الشيخ) ، وقد يعبّر به فيما بيننا عمن يكثر علمه ، لمَّا كان مِن شأن (الشيخ) أن يكثر تجاربه ومعارفه " انتهى من " المفردات في غريب القرآن " (ص/469) .

وقد أدى إلى هذا الاستعمال الجديد – نسبيا ـ دخولُ الحراك العلمي على البيئة العربية التي كانت أمة أمية لا تكتب ولا تحسب ، فجاء الإسلام بالعلم والمعرفة ، وبدأت النهضة تتمثل بالمعلمين من الصحابة الكرام ، الذين انتشروا في البلاد ، فتتلمذ التابعون عليهم ، وبدأ لقب (الشيخ) يتمحور حينئذ في وقت مبكر من التاريخ ، بل في عصر الاحتجاج اللغوي ، خاصة بين المحدثين ، إذ لم يتردد أحد منهم في إطلاق وصف (الشيخ) على من يؤخذ عنه الحديث ، في مقابلة التلميذ الذي يتلقى الحديث .

رابعا :

هذا وقد أطلق المحدثون كلمة (الشيخ) إطلاقات أخرى عدة :

منها : إطلاق عام للتعريف بالراوي بذكر بلده أو عائلته ، ووصفه بالمشيخة إنما يعني انتساب هذا الشخص إلى العلم والرواية ، وإن لم يكن له كبير شهرة فيه ، كما قال ابن معين في داود بن علي بن عبدالله : " شيخ هاشمي ، إنما يحدث بحديث واحد " ينظر " تاريخ ابن معين – رواية الدارمي " (1/108) .

ومنها : الدلالة على التلميذ والمعلم ، كقول الناقد في الراوي : شيخ لفلان ، أو شيخٌ يروي عن فلان ، وخاصة فيما إذا كان التلميذ معروفاً مشهوراً ، وشيخه ليس كذلك ، فيعرف الشيخ بأن فلاناً الراوي المشهور من الرواة عنه .

ومنها : إطلاق المحدثين هذا الوصف بقصد الدلالة على عبادة الراوي وصلاحه ، وإن لم يكن له في العلم أي مشاركة ، كما جاء في ترجمة حجاج بن فرافصة الباهلي ، قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : " سمعت أبي يقول : حجاج بن فرافصة : شيخ

صالح متعبد " كما في " الجرح والتعديل " (3/164) .

ومن أشهر إطلاقات المحدثين لكلمة (شيخ) يريدون بها مصطلحا نقديا خاصا يتعرض فيه لذكر مرتبة الراوي ، وتكون فيه كلمة " شيخ " مقرونة مع مصطلح آخر من مصطلحات النقد الحديثي ، قد يكون من ألفاظ التعديل ، وقد يكون من ألفاظ الجرح . وهذا الإطلاق من دقيق ألفاظ الجرح والتعديل التي كتبت فيها الأبحاث المتخصصة في دراستها وتحرير مراد المحدثين بها . ينظر رسالة دكتوراة بعنوان : " مصطلح شيخ عند المحدثين ، دراسة نظرية تطبيقية في الكتب الستة " ، للدكتور عبدالرحمن مشاقبة ، الجامعة الأردنية ، 2011م.

وهكذا تشكلت أعراف خاصة لكلمة شيخ لدى قطاعات علمية متنوعة ، فالمحدثون إذا قالوا (رواه الشيخان) أرادوا بهما البخاري ومسلما ، وفقهاء الشافعية إذا قالوا : (الشيخان) أرادوا بهما الإمامين الرافعي والنووي ، والحنفية يطلقون (الشيخين) على أبي حنيفة وأبي يوسف ، وعند الحنابلة هما الموفق ابن قدامة والمجد بن تيمية . ينظر كتاب " المدخل إلى دراسة المذاهب الفقهية ".

وهكذا يتفاوت الإطلاق ويتشكل العرف الخاص ، وكلها اصطلاحات تحتملها اللغة ، ولا مشاحة في الاصطلاح .

والله أعلم .